الباب الأول
نعمة الخلق

* تمهيد

* الفصل الأوّل: نعمة خلق الإنسان

* الفصل الثاني: نعمة خلق الكون

تمهيد

﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ هي جزء من آية وردت مرّتين في القرآن الكريم، في سورة إبراهيم آية رقم ٣٤، وفي سورة النحل آية رقم ١٨. وفي كلتا المرّتين وردت في سياق التذكير ببعض النعم الربّانيّة التي اعتاد الناس عليها فألفوها وأصبحت في سياق حياتهم اليومية وجُزءًا منها، فهم لا يكادون يرونها ولا يشعرون بها، ولذلك كان لا بد من التذكير بها، ولفت النظر إليها، والتشديد عليها.

فخلق السموات والأرض والكون بمجمله، في حركاته وتجاذباته، وخلق الإنسان والحيوان والنبات، ودورة الماء بين الأرض والسماء وغير ذلك كلّها نعم لا تعدّ ولا تحصى، سخّرها ربّ العالمين لهذا الإنسان الآدمي الذي خلقه بيده ثمّ نفخ فيه من روحه. وما ذلك إلّا لتحقيق الرسالة السامية التي من أجلها خلق الله الإنسان والتي تقضي بأن يكون الإنسان خليفة في الأرض: ﴿ وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ ﴾ [البقرة: ٣٠]، ولا تتحقّق هذه الخلافة إلّا بعبادة الله الواحد الأحد بمفهوم العبادة الشامل: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، والعبادة هي أوّلًا إقرار بالربوبيّة وإقامة الأحكام الشرعيّة من شهادة وصلاة وصيام وزكاة وحجّ لمن استطاع إليه سبيلًا، وغيرها من التكاليف الشرعية، كما أنّها عمارة للأرض التي استخلفنا الله عليها: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا ﴾ [هود: ٦١]. ومفهوم العبادة يقتضي أيضًا الاستفادة من جميع ما سخّر الله لنا في واسع ملكوته من أجل عمارة الأرض وسعادة الإنسان فيها، ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ﴾[الجاثية: ١٣].

ولكي ندرك أهمّيّة النعم التي أنعم الله بها علينا وألفناها، وجرى ذكر بعضها في الآيات التي سبقت قوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآ ﴾ في

سورتي إبراهيم والنحل؛ علينا أن نستشعر عدم وجودها، وكيف يكون للإنسان أن يحيا من دونها؟! فآيتا الليل والنهار مثلًا هما أقرب إلى التصور، وفيهما من العبر والإعجاز ما يكفي لإدراك ما نحن بصدده.

وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك التصور حيث يقول الله عز وجل: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلَّيۡلَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِضِيَآءٍۖ أَفَلَا تَسۡمَعُونَ ٧١ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرۡمَدًا إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِلَيۡلٖ تَسۡكُنُونَ فِيهِۖ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٧٢ وَمِن رَّحۡمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسۡكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٣ ﴾ [القصص: ٧١ – ٧٣]، أي أنّه لو قدّر اللهُ الحياةَ على ظهر الأرض في ظلام الليل؛ لما استطاع الناس القيام بشيء ممّا يقومون به في حياتهم العاديّة، ولانتفت خلافة الله في أرضه، وعمارة الإنسان لها. وكذلك لو كان النهار سرمدًا مستمرًا لهلكت أعصاب الناس، ولما استطاعوا الراحة والسكينة، وقد أثبت العلم الحديث أهمّيّة تناوب الليل والنهار، واستقرار عمل الجسم في هذه الظروف التي أصبحت بالنسبة إلينا طبيعية، فألفناها وتعودنا عليها.

ولا عجب أن يشعر بعض الناس بالإرهاق عندما يضطرّون للسفر إلى البلاد المواجهة لبلادهم الأصلية، أي في الطرف الآخر من الكرة الأرضيّة، حيث ينقلب الليل نهارًا والنهار ليلًا ولو لمرّة واحدة. كما أنّ سكان الدول المجاورة للقطب الشمالي حيث يطول الليل كثيرًا في بعض فصول السنة ويطول النهار كثيرًا في الفصول الأخرى، يعانون من إرهاق في أجهزتهم العصبية، وتراهم يجنحون نحو التغيير في ظروف معيشتهم عند أوّل فرصة سانحة، مما يدفع بتلك الدول إلى إعطاء حوافز معيشيّة؛ نظرًا لصعوبة العيش في تلك المناطق.

وإذا تأمّلنا في خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار وتعاقبهما، وأدركنا بعضًا من آيات الله عزّ وجلّ فيهما، لوجدنا كيف أنّ الله قد سخّر لنا عددًا كبيرًا من هذه الآيات، لتكون لنا نعمًا متواصلة تتحقّق، من خلالها، سعادة الإنسان

فتكون عبادته لربّه عن إيمان صادق ويقين ثابت وحبّ كبير، يصدّقها عمل متقبّل عند الله فتتحقّق بذلك خلافة الإنسان لله في أرضه.

يقول الله عز وجل: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠ – ١٩١].

يرى المتخصّصون في الإعجاز العلمي في القرآن أنّ فيه ما يقارب الألف آية قرآنيّة كونيّة، وفي كلّ منها استدلال على حقيقة الألوهيّة والوحدانيّة، وأن الذي خلق الكون إله واحد قادر، أزليّ الوجود، ويستدلّون على ذلك – من خلال الاكتشافات العلميّة الحديثة الثابتة – بهذه الآيات التي نزلت على النبيّ صلّى الله عليه وسلّم منذ ما يزيد على أربعةَ عشرَ قرنًا، ولم يتوصّل العلم إلى استنباط معظمها إلّا في القرن العشرين.

وبالإضافة إلى الإعجاز العلميّ في هذه الآيات، فإنّ فيها من النعم ما يعجز عن الإحاطة بها عقل بشري، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾

الفصل الأول
نعمة خلق الإنسان

* الخلق الأوّل
* الخلق التالي
* نعمة العقل
* نعمة الهداية
* فضائل ذكر الموت
* الموت نعمة أم نقمة ؟

نعمة خلق الإنسان

الخلق الأول

خلق الله آدم من تراب الأرض ومن مائها، ثمّ اختلط التراب بالماء فأصبح طينًا، ثمّ يبس الطين فأصبح صلصالًا، ثمّ حمأ مسنونًا، ثمّ كانت التسوية والتصوير على الشكل الآدمي.

قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٤]. وقال أيضًا: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾[الحجر: ٢٨ - ٢٩].

وإذا كان التكريم الأوّل بأن خَلَقَ اللهُ الإنسانَ بيديه (على الوجه الذي يليق بجلاله)، فالتكريم الثاني هو نعمة كبيرة من الله بأن نفخ فيه من روحه (كما ذَكر). فانتقل التكوين المادّي إلى تكوين عضوي بنفخ الروح من الله عزّ وجلّ، وبهذه الروح تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات الأخرى. كما سيكون له العقل الذي سيحكم بفضله على الأشياء، ويتلقّى العلم الأوّل من ربّه ثمّ يعمل على تطويره. وسيكون هذا الإنسان خليفةً في الأرض، كما أمر سبحانه، وأعلم بذلك ملائكة قدسه: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [البقرة: ٣٠ - ٣١].

فإرادة الله عزّ وجلّ بخلق آدم للخلافة في الأرض، مع الربط المباشر لها بالعلم. وتخصيص آدم بمعرفة الأسماء كلّها - والملائكة لا تعرفها - : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ

صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [البقرة: ٣١ – ٣٢]، تشير إلى تفضيل الإنسان وتكريمه بمنحة العلم تأكيدًا على تمييزه عن سائر المخلوقات.

والتكريم الآخر كان بأن أمر الله الملائكةَ بالسجود لآدم: ﴿ وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾[البقرة: ٣٤]. وأسكن الله آدم الجنّة وخلق له حوّاء ليذوقا نعيمها ورغدها ما عدا شجرة واحدة. ولكنّ إبليس، الذي لم يسجد لآدم واعتبر نفسه أفضل من آدم لأنّ الله خلقه من نار وخلق آدم من طين، أصرّ على الغواية، ووسوس لهما بالأكل من الشجرة حتى يكون لهما المُلك الخالد، الذي لا يفنى. فأكلا منها، وعصى آدمُ ربَّه ثمّ تاب من بعد ذلك، وكانت تلك هي المعصية الأولى للبشر. وكان الأمر الإلهي بالهبوط إلى الأرض، وبدأت العداوة الدائمة بين الإنسان والشيطان إلى يوم القيامة، وتكرّست محاولات الشيطان بغواية الإنسان عن صراط الله المستقيم: ﴿ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [ص: ٨٢ – ٨٣].

لقد أنعم الله على الإنسان في قصة خلق آدم نعمًا كثيرة، فالخلق الأوّل كان من تراب الأرض، والذي إليه نعود بعد الموت، وعمليّة الخلق والتصوير كانت من الخالق عزّ وجلّ: ﴿ لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: ٤]، ونَفْخُ الروح من ربّ العالمين، والعلم الإلهي الأوّل كان لآدم من الله عزّ وجلّ، كما أن سكنى الجنّة وخلق حوّاء لآدم، وسجود الملائكة له، كلّ ذلك يدلّ بوضوح على رفعة شأن هذا المخلوق الجديد الذي وصفه ربّ العالمين منذ اليوم الأوّل لعملية الخلق بأنّه خليفة في الأرض.

وبعد أن وهب الله تعالى، أبانا آدم – عليه السلام – نعمة العقل علّمه الأسماء كلّها ليحكم بها على الأشياء وليميز الخبيث من الطيب: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴿١٠﴾ ﴾ [البلد: ١٠]، وبيّن له الحلال من الحرام، وقد اقتصر الحرام في الجنّة على عدم

الاقتراب من شجرة معيّنة وأكل شيء من ثمارها. فكانت وسوسة الشيطان لهما بداية المعركة بين الخير والشر، بين طاعة أوامر الله وارتكاب المعصية، هذه المعركة ستستمرّ إلى يوم القيامة، فإذا امتثل الإنسان لأوامر الله كان شاكرًا لنعمه، وإذا خالف كان كمن يكفر بالنعمة، فتزول عنه؛ ولا بد عندها من التوبة. وعندما أكل آدم من الشجرة مخالفًا أمر ربّه صدر الأمر الإلهي بالنزول من الجنّة إلى الأرض، وعلَّم اللهُ آدمَ التوبة عن المعصية وماذا عليه أن يقول، فتاب الله عليه: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة: ٣٧].

وإذا كانت المعركة بين الخير والشر قد بدأت مع خلق آدم وستستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فإن الله قد أعطى للإنسان عُدّة المعركة وأوّلها العقل والعلم، ورسم له الطريق: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ ﴾ [الشمس: ٧ – ١٠]، فالإنسان مولود على الفطرة، ومفطور على الخير في الأصل، ولكنّ نزعة الشرّ عنده تنمو، بسبب وسوسة الشيطان وغوايته التي لا تهدأ ولا تفتر ولا تستكين. ولذلك فهو بعقله وعلمه، قادر على توجيه نفسه إمّا إلى الخير وإمّا إلى الشر، وقد أنزل الله الشرائع السماوية لتبيّن للناس طريق الخير وترشدهم إليها وتبيّن لهم طريق الشرّ وترشدهم إلى اجتنابها.

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ ﴾ [الإنسان: ٣]، أي إن على الإنسان أن يختار بنفسه أيّ الطريقين يسلك، فهذا طريق الخير فيه امتثال لأوامر الله في العبادة والأخلاق والممارسة والعمل والأداء، وفيه ما قد يخالف الشهوات، ويتطلّب الصبر والمثابرة والجهد والعناء والتفكر والتدبر، وهو طريق يقود صاحبه إلى الجنة، وذاك طريق الشر، وفيه معصية لأوامر الله ونكران لذاته وإتيان محارمه وربما إرضاء للشهوات والغرائز أو بُعْدٌ عن الأخلاق. وهذا الطريق يقود صاحبه إلى النار، وعلى الإنسان أن يختار بنفسه. والنتيجة تكون أن: ﴿ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ ﴾ [المدثر: ٣٨].

واختيار الإنسان أيّ الطريقين يسلك مرتبط بمدى قدرة عقله على الإحاطة بكلّ من الطريقين وما ينتظره فيهما، ومدى تأثّره بالعوامل الخارجيّة المحيطة به وتفاعله معها، ومدى انقياده لوسوسة الشياطين وقوّة مقاومته لها. فالله عزّ وجلّ أرسل الأنبياء مبشرين ومنذرين ومرشدين للناس، وأنزل الكتب السماوية، وآخرها القرآن الكريم حتّى يبيّن للناس معالم الطريقين، ويحثّهم على طريق الخير والرشاد. أما التأثّر بالعوامل الخارجيّة والخضوع لوسوسة الشيطان؛ فهما بحاجة إلى العقل والإرادة اللذين بهما يكون القرار، فإمّا إلى الجنّة وإمّا إلى النار.

ومع قصّة الخَلْقِ الأوّل، خَلْقِ آدم عليه السلام، تجدر الإشارة إلى أنّ الله عزّ وجلّ بعد أن خلق آدم من تراب، وصوّره ونفخ فيه من روحه، علّمه الأسماء كلّها. وهذا المشهد يتكرّر بعد فترة طويلة من الزمن على الأرض: ﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ** ﴾ **[آل عمران: ٥٩]**، فخَلْقُ نبيّ الله عيسى عليه السلام من دون أب، ومن خارج قواعد التناسل التي شرعها الله بعد آدم، كان بإرسال روح من الله إلى السيّدة مريم رضي الله عنها: ﴿ **فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا** ﴾ **[مريم: ١٧]**، وكانت معجزة عيسى عليه السلام أن تكلّم في المهد. أي إن عمليّة النفخ من روح الله في خَلْقِ آدم عليه السلام وفي خلق عيسى عليه السلام ترافقت مع العلم الذي أودعه الله فيهما.

وقد ذكر القرآن الكريم الترابط بين الخلق والعلم مرّتين: في سورة الرحمن حيث يقول تعالى: ﴿ **ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤** ﴾ **[الرحمن: ١ – ٤]**، وفي سورة العلق: ﴿ **ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣** ﴾ **[العلق: ١ – ٣]**.

كما تجدر الإشارة إلى التشابه بين عملية الخلق الأوّل الذي بدأه الله عزّ وجلّ من تراب وماء، وعمليّة البعث بعد الموت: ﴿ **۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ** ﴾ **[الرعد: ٥]**. فكيف يعجب الإنسان من البعث الجديد

بعد حياته الأولى على الأرض، وهو من ترابها ابتدأ، وإلى ترابها يعود بعد أن تنقضي حياته الأولى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝ ﴾ [الحج: ٥ – ٦].

الخلق التالي

يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٢] فالطين هو المصدر الأوّل في خلق الإنسان، أو ما يسمّى بالطور الأوّل. وبعد أن خلق الله آدم، خلق الله حوّاء، لتكون سكنًا لآدم. وأودع في كلّ منهما الشهوة، وزينها لهما من أجل التلاقي، ووضع في كلّ منهما جزءًا يكمّل الآخر: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤]؛ لتتكامل بذلك المسيرة البشريّة وتتواصل بسهولة ويسر.

أمّا الخلق التالي ففيه أطوار متعدّدة تكلّم عليها القرآن في عدّة سور، ولكنّ الإنسان لم يصل إلى فهمها وإدراكها إلّا في القرن العشرين. وقد تكلّم المتخصّصون في الإعجاز القرآني على هذا الأمر في مواضع كثيرة. وقضت حكمة الله بأن تودع في كلّ من الرجل والمرأة نطفة مختلفة عن الأخرى حتى يحصل اللقاح بينهما: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ﴾ [المؤمنون: ١٣]. ولقد تعجّب العلماء كثيرًا من هذا القرار المكين الذي هو رحم المرأة بين عظام الحوض، فقد تبيّن أنّه فعلًا أفضل مكان عند المرأة لعدم تأثره بالحركات والعوامل الخارجيّة من اهتزازات الجسم وغيرها.

ثمّ يقول تعالى: ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]، أي إنّه بعد أن تمتزج نطفة الرجل ونطفة المرأة، أي البويضة، تعلق هذه الأخيرة بجدار الرحم، فتكون علقة تتغذّى في الرحم من دم الأمّ. ثمّ تتحوّل هذه العلقة إلى قطعة من دم لزج فتسمّى مضغةً: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]، وتتوالى عمليّة النموّ لتأتي مرحلة العظام، فتتحوّل المضغة إلى عظم، بقدرة الخالق وحده عزّ وجلّ: ﴿ فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا ﴾ [المؤمنون: ١٤]، ثمّ تأتي بعد ذلك مرحلة كسوة العظام باللحم: ﴿ فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ﴾ [المؤمنون: ١٤].

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى هذا التحويل المستمر، فقد وصف القرآن النطفة

عند الرجل والبويضة عند المرأة بالمائية لأنّهما كانتا في ماء كلٍّ منهما: ﴿ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ﴾ [السجدة: ٨]، فتحوّلتا بقدرة الله وحده إلى لحم وعظم، خلال فترة وجيزة لا تتعدّى الشهرين: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾ [المؤمنون: ١٤].

وغنيّ عن الذكر أنّ خلايا العظم تختلف عن خلايا اللحم، وخلايا العظم هي التي ستشكل الهيكل العظمي للجنين، وحجمها في بداية الأمر لا يتعدّى ثلاثة سنتيمترات. أمّا خلايا اللحم فهي التي ستشكّل العضلات والأجهزة المختلفة والمتعدّدة في جسم الإنسان. وبذلك يصبح هذا المخلوق بحقّ خلقًا آخر: ﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ۝١٤ ﴾ [المؤمنون: ١٤]. هذا الخلق هو الخلق الإنسانيّ المختلف كليًا عن الخلق الحيوانيّ وعن الخلق النباتيّ، وفي كلّ منها دليل على مطلق قدرة الخالق، وعلى تفرّده بعمليّة الخلق.

ويتواصل تكوين الجنين في بطن أمه، حتى يتكامل الجهاز العظمي مع مفاصله وقدرته على الحركة. وتتكامل الأجهزة الأخرى، ومنها ما يتكامل مع أدائه، كالقلب مثلًا، ومنها ما يتكامل من دون أداء، كالجهاز التنفّسيّ الذي يبقى معطلًا حتى الولادة. ومنها ما يتكامل بعمل جُزئيّ كالجهاز الهضميّ، فامتصاص الغذاء يكون بواسطة الحبل السرّيّ الذي يربط أمعاء الطفل برحم الأم ليؤمّن له الغذاء. كما تظهر الأطراف والمفاصل. وتبدأ حركة الجنين في الرحم، وتستشعرها الأم فتزيد في تحملها لإرهاق الحمل صبرًا، وتزيد في شوقها وانتظارها للحظة الولادة تأجّجًا وعاطفة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلّم: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمّه أربعين يومًا، ثمّ يكون علقة مثل ذلك، ثمّ يكون مضغة مثل ذلك، ثمّ يبعث الله ملكًا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقيّ أو سعيد ثمّ ينفخ فيه

الروح»[1].

لذلك فإنّ من نعم الله الكبيرة على الإنسان هذا الانتقال من طور الخلق الأوّل من طين، إلى طور التناسل من ماء مهين. ومن النعم أيضًا أنّ الله خلق الإنسان من زوجين اثنين، الرجل والمرأة، وجعل بينهما الشهوة، وأودع فيهما العاطفة وحبّ الذريّة، وجعل كلّ ذلك يتمّ بسهولة ويسر عجيبين، وبتقدير دائم من ربّ العالمين.

وإذا ما شاب ذلك إرهاق في الحمل وألم في الولادة عند المرأة، فإنّ عاطفة الأمومة سرعان ما تمحو هذه المشاعر، ولقد ذكر الله ثواب تحمّل المرأة لهذه الآلام، وذكّر بها الأبناء، حتى تكون دافعًا ومحركًا لهم في برّ الوالدين، مع تخصيص الأمّ بذلك: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ ﴾ [الأحقاف: ١٥]. ففي هذه الآية يصوّر القرآن الكريم الجهد والعناء والضنى الذي يصيب الأم في فترات الحمل والولادة والرضاعة.

فالتوصية بحسن المعاملة للوالدين معًا، أمّا التخصيص فللأمّ وحدّها، لأنّ الولد في مراحل الحمل والولادة والرضاعة لا يدرك هذه الآلام والإرهاقات التي تصيب الأمّ، فوجب تذكيره بها أوّلًا، كما أنّها إشارة من الله عزّ وجلّ بأن فضل الأم فيها وثوابها لا يضيع ولا يستطيع أحد أن يكافئها عليه سوى ربّ العالمين.

عن أبي بردة أنّه شهد ابن عمر - رضي الله عنهم - ورجل يماني يطوف

---

(١) - البخاري، الصحيح. كتاب بدء الخلق ، باب ذكر الملائكة صلوات الله عليهم، ح (١٣٧٢)، ٥٥١/٤ [واللفظ له].

مسلم، الصحيح: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته، ح (٢٦٤٣/١)، ٢٠٣٦/٤.

بالبيت حمل أمه وراء ظهره يقول:

إنـــي لهـــا بعيـــرُها المـــذلل إن أُذعـــرت ركابهـــا لمـــا أُذعـــر

ثـــمّ قـــال: يـــا ابـــن عمـــر، أترانـــي جـــزيتها؟ قـــال: « «لا ولا بزفـــرة واحدة» [١].

يقول ابن عجيبة في كتابه «إيقاظ الهمم في شرح الحكم»: «ثمّ أَنَّهُ (أي الله عزّ وجلّ) جعلكَ (أيّها الإنسان) نطفة مستودعة في الأصلاب، تولّاك بتدبيره هنالك، حافظًا لك وحافظًا لما أنت فيه، موصلًا لك المدد بواسطة ما أنت فيه من الآباء إلى أبيك آدم، ثمّ قذفك في رحم الأمّ فتولاك بحسن التدبير، وجعل الرحم قابلة لك أرضًا يكون لنباتك، ومستودعًا تعطى فيها حياتك، ثمّ جمع بين النطفتين وألّف بينهما، فكنت عنهما؛ لما بُنِيَتْ عليه الحكمة الإلهية من أن الوجود كلّه مبنيّ على سرّ الازدواج، ثمّ جعلك بعد النطفة علقة مهيأة لما يريد سبحانه أن ينقلها إليه. ثمّ بعد العلقة مضغة، ثمّ فتق سبحانه في المضغة صورتك وأقام فيها بُنْيَتَكَ، ثمّ نفخ فيك الروح بعد ذلك، ثمّ غذاك في رحم الأم حتى قويت أعضاؤك واشتدت أركانك ليهيئك إلى البروز إلى قَسَمٍ لك أو عليك وليبرزك إلى دار تتعرف فيها بفضله وعدله إليك» [٢].

وإذا كانت عملية الولادة شاقّة ومؤلمة، فإنها لا تقف في وجه الفطرة البشريّة، التي فطر الله الناس عليها، فترى الأمّ تبتسم وتسرّ لمجرّد سماع صرخة وليدها بعد الولادة. فتنظر إليه بعين الحب والشفقة والرعاية والأمومة، وتجيش في صدرها كلّ هذه المشاعر في لحظة واحدة، فَيُجرِيَ الله في عروقها وفي ثدييها غذاءً لهذا الوليد يعجز العالم كلّه عن وضع مثيل له، ليتواصل هذا الإبداع العظيم، فتأخذ الأم وليدها وتضمّه إلى صدرها ضمّة يكاد الناظر إليها يخاف على الوليد من الاختناق، ولكن

---

(١) - البخاري، الأدب المفرد، باب جزاء الوالدين، ح (١١).

(٢) إيقاظ الهمم في شرح الحكم. العارف بالله أحمد بن محمّد بن عجيبة. القاهرة - دار المعارف.

رعاية الله وقدرته اللامتناهية، هي التي أجرت الحليب في ثديي الأم، وهي التي حرّكت شفتي الطفل. فكان غذاؤه الأول بالفم. وقد حلل العلماء هذا الحليب في اليومين الأوّلين بعد الولادة فوجدوه خفيفًا قليل الوحدات الحرارية، لأنّ الجهاز الهضمي في بداية عمله لا يتحمّل أكثر من ذلك. ثمّ تقوى عناصر التغذية في هذا الحليب بعد ذلك؛ ليبقى فريدًا في تنوعه، معجزًا في تكوينه، نقيًّا في مساره، ثابتًا في حرارته، متغيرًا مع تنوّع أكل الأم في تركيبه.

وفي الرضاعة قوّة خفية، ورباط وثيق ينشأ بين الأم المرضِعة وطفلها لا يمحوه الزمن ولا تضعفه السنون. فها هو موسى عليه السلام وقد أمر اللهُ تعالى أمَّه أن ترضعه: ﴿ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِ ﴾ [القصص: ٧]، فيأخذ الثدي بفمه ويتلذّذ بحليب أمّه وتتلذّذ هي برضاعته. ثمّ يأمرها أن تلقيه في اليمّ، ولم يكن ذلك سهلًا على الأمّ إطلاقًا لولا تشجيع الله لها وطمأنته: ﴿ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحۡزَنِيٓۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴾ [المرسلين: ٧]، حتى إذا التقطت امرأةُ فرعون الطفلَ الرضيع، وطلبت عدم قتله، أحضرت له المراضع من كلّ حدب وصوب فأباهنّ جميعًا حتى جاءت أمّ موسى، فأقبل الطفل على الأمّ ينهم من ثدييها ويغفو على صدرها وتحقّق وعد الله: ﴿ فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ ﴾ [القصص: ١٣].

وفي القرآن أيضًا إشارة أخرى إلى الرباط الذي ينشأ بفضل الرضاعة بين الأم ووليدها، حيث يذكِّر اللهُ الناسَ بمشهدِ البعث وأهواله، وما يصيب الناس من تفكّك وخوف وهلع وانصراف بعضهم عن بعض، فيضرب الله المثل في ذهول المرضعة عمّا أرضعت لشدّة هول ذلك اليوم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ۝١ يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٞ ۝٢ ﴾ [الحج: ١ - ٢].

يقول ابن عجيبة: «ثمّ لما أُنْزِلْتَ (أيّها الإنسان) إلى الأرض، علم (الله) أنّك لا تستطيع أن تتناول خشونات المطاعم وليس لك أسنان تستطيع بها على ما أنت طاعم، فأجرى الثديين بالغذاء اللطيف، ووكل بهما مستحثّ الرحمة التي جعلها في قلب الأمّ فكلّما وقف اللبن على البروز استحثته الرحمة التي جعلها لك في الأم مستحثًا لا يفتر، ومستنهضًا لا يقصر»[1].

ولا تتوقّف العناية الإلهية عند أيّ حدود، فبعد الرضاعة يستمرّ المدد الربّاني بالغذاء على أنواعه، لينمو الجسم الصغير وتبدأ حركاته وإشاراته، ويبدأ بالتعوّد والمشي. ولا يغيب عن البال أن البارئ قد نفخ الروح في هذا الإنسان عندما كان جنينًا في بطن أمه، فوهبه بذلك القدرة على التعلّم واكتساب العقل، كما كان في خلق آدم عليه السلام.

لذلك فإنّ النفخة من روح الله جلّ وعلا، هي التي جعلت الكائن الترابيّ إنسانًا ومنحته الخصائص والصفات البشريّة وأهمّها العقل. وهي التي جعلت الإنسان في الخلق التالي يحمل هذه الصفات أيضًا، وهذه الخصائص والصفات هي التي ميّزته عن الحيوان وعن كلّ مخلوق آخر.

(١) إيقاظ الهمم في شرح الحكم، العارف بالله أحمد بن محمّد بن عجيبة، القاهرة، دار المعارف.

نعمة العقل

«العقل نعمة من أعظم النعم التي اختصّ الله عزّ وجلّ بها الإنسان، وميّزه عن سائر المخلوقات، فقد جعله بالعقل يدرك حقائق الوجود، ويميّز بين الحقّ والباطل، والحلال والحرام، وبه يهتدي إلى تحقيق المصالح، واتّقاء المضارّ»[1]، وبه قبل ذلك كلّه، يهتدي إلى خالقه ويعرف صفاته وعظيم خلقه، وهو مناط التكليف، والكابح للهوى، وآلة التفكير، والمعين على التدبير.

وقد جاء في لسان العرب أن العقل هو الحجر والنهى (ضد الحُمق)، والجمع عقول، وقيل رجل عاقل وهو الجامع لأمره ورأيه. وقيل: العقل هو التميّز الذي به يتميّز الإنسان عن سائر الحيوانات.

والعقل يكون في بداية حياة الإنسان غريزيًّا لا يدرك إلّا حاجته، يقول تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾ **[النحل: ٧٨]**. أمّا نمو العقل فيبدأ مع اكتساب المعرفة شيئًا فشيئًا. يقول ابن القيّم رحمه الله: «لو ولدت أيها الإنسان عاقلًا كحالك في كبرك لتنغّصت عليك حياتك أعظم تنغيص، لأنك ترى نفسك محمولًا رضيعًا، عاجزًا مسجونًا في المهد... ولكنّها محض الحكمة والرحمة بك»[2]. والعقل ينمو على مرور الأيام إلى أن يبلغ أربعين سنة: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ **[الأحقاف: ١٥]**، ثمّ بعد ذلك يأخذ في النقصان، بخلاف العلم، فإنه يكون كلّ يوم في زيادة، ومنتهى تعلُّم العلم هو منتهى العمر.

لم ترِد كلمة «العقل» بالصيغة الاسميّة في القرآن الكريم، ولكنّها وردت بصيغة الفعل المضارع، في آيات كثيرة جدًّا، على سبيل الاستفهام: ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أو الترجي: ﴿ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾ أو التقدير: ﴿ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴾ أو النفي: ﴿ لَا

---

(١) موقع الشبكة الإسلامية (islamweb.net). محاضرة سعود الشريم: (مكانة العقل وأهميته للإنسان).

(٢) المصدر نفسه.

يَعْقِلُونَ ﴾ [١]. كما أنّ هناك عددًا كبيرًا من الآيات كانت تنتهي بالحثّ على التفكّر والتدبّر والتذكّر، وما إلى ذلك من أفعال أداتها عقل الإنسان. وكلّ هذه الآيات كانت تطرح قضايا معيّنة تتطلّب مخاطبة العقل والدعوة إلى إعماله لاستنباط حقيقة إيمانيّة ونعمة إلهيّة، خصّ الله عزّ وجلّ بها الإنسان دون غيره من سائر المخلوقات.

يقول تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

ويقول عزّ وجلّ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٠]. ويقول أيضًا: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [الرعد: ٤].

ولذلك كان الأمر الإلهي بحفظ العقل، وهو إحدى الضرورات الخمس التي أجمعت الأديان على حفظها، وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل والمال. كما أكّد الإسلام حرمة كلّ ما يُذهِب أو يعطّل العقل كشرب الخمر، وتعاطي المخدّرات ونحوها، وجعل الديّة كاملة في زوال العقل إذا اعتدي عليه [٢].

كما أن القرآن الكريم حذَّر ونهى من تعطيل العقل وعدم استعماله حيث يقول تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ ﴾

---

(١) مفهوم العقل والقلب في القرآن والسنة. الشيخ محمّد علي الجوزو. دار العلم للملايين، ط١، ١٩٨٠.

(٢) موقع الشبكة الإسلامية (islamweb.net). محاضرة سعود الشريم: (مكانة العقل وأهميته للإنسان).

[الأعـراف: ١٧٩]، ويقول أيضًا: ﴿ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ [الأنفال: ٢٢]. كما نهى عن التقليد الأعمى لمن سبقنا بغير إدراك ولا علم ولا تعقّل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٧٠]. ونهى أيضًا عن تغليب الهوى على العقل، لأن ذلك يقود إلى الفساد والتهلكة وسوء المنقلب: ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾ [محمّد: ١٤] ويقول: ﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

ولكي يؤدّي العقل البشري وظيفته على أكمل وجه، يجب على صاحبه أن يتجرّد عن الهوى وألّا يتأثّر بالعوامل الخارجة عن الإطار الشرعيّ الصحيح مهما تزيّنت وأغوت. فالعقل يتكامل مع القواعد الشرعية، وبه يكتمل دين المسلم. «غير أنّه لا يستقلّ بذلك وحده، إذ هو غريزة في النفس، وقوة فيها، كقوة البصر إيجابًا وسلبًا، وما ذاك إلّا بقدر اقتباسه من نور الإيمان، بيد أنّه إذا انفرد عن النور أو أبعد عنه بالكلّيّة، كانت أقواله وأفعاله أمورًا حيوانيّة، كما قال ذلك شيخ الإسلام رحمه الله»[(١)].

والعقل مناط التكليف، يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتّى يستيقظ، وعن المبتلى حتى يبرأ، وعن الصبيّ حتّى يكبر»[(٢)].

وقد ورد في الإحياء عن سعيد بن المسيب: أن عمر وأُبيّ بن كعب وأبا هريرة رضي الله عنهم دخلوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فقالوا يا

---

(١) موقع الشبكة الإسلامية (islamweb.net). محاضرة سعود الشريم: (مكانة العقل وأهميته للإنسان).

(٢) – أبو داود، السنن، كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًّا، ح (٤٣٩٨)، ص (٦٩١).

– ابن ماجه، السنن، كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، ح (٢٠٤١)، ١/ ٦٥٨.

رسول الله من أعلم الناس؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «العاقل». قالوا فمن أعبد الناس؟ قال: «العاقل». قالوا: فمن أفضل الناس؟ قال: «العاقل»، قالوا: أليس العاقل من تمّت مروءته، وظهرت فصاحته، وعظمت منزلته؟ فقال عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْأَخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ **[الزخرف: ٣٥]**. «إن العاقل هو المتقي، وإن كان في الدنيا خسيسًا ذليلًا»[١].

كما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بالتواصي بالعقل حيث يقول: «اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل، تعرفوا ما أمرتم به، وما نهيتم عنه، واعلموا أنّه ينجدكم عند ربكم...» ويقول أيضًا: «أول ما خلق الله العقل، فقال له: أقبل فأقبل، ثمّ قال له: أدبر فأدبر، ثمّ قال الله عز وجل: وعزتي وجلالي، ما خلقت أكرم علي منك، بك آخذ، وبك أعطي، وبك أثيب، وبك أعاقب...»[٢].

وقد ورد في الأثر: «أن جبريل أتى آدم عليه السلام، فقال له: إني أتيتك بثلاث فاختر واحدة منها. قال: وما هي يا جبريل؟ قال: العقل والدين والحياء. قال آدم عليه السلام: قد اخترتُ العقل. فخرج جبريل إلى الحياء والدين، فقال لهما: ارجعا فقد اختار عليكما العقل. فقالا: أُمرنا أن نكون مع العقل حيث كان»[٣].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «قلت يا رسول الله بم يتفاضل الناس في الدنيا؟ قال: «بالعقل»، قلت: وفي الآخرة، قال: «بالعقل». قلت: إنّما يجزون بأعمالهم. فقال رسول الله: «يا عائشة: وهل عملوا إلّا بقدر ما أعطاهم الله عز وجلّ من العقل. فبقدر ما أُعطوا من العقل كانت أعمالهم، وبقدر ما عملوا يُجزون». ويقول عليه الصلاة والسلام أيضًا: «أتمّكم عقلًا أشدّكم لله خوفًا، وأحسنكم في ما أمركم به ونهى عنه»[٤].

وكان عمر بن الخطاب يدعو إلى إعمال العقل والفهم والقياس في ما لم يَرِدْ

---

(١) إحياء علوم الدين. الإمام أبو حامد الغزالي. دار ابن حزم، ط١، ٢٠٠٥.

(٢) مقام العقل عند العرب. قدري حافظ طوفان. دار المعارف. مصر ١٩٦٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) المصدر نفسه.

فيه نص. فقد ورد في كتابه إلى أبي موسى الأشعري ما يأتي: «ولا يمنعك قضاءٌ قضيتَهُ اليوم، فراجعت فيه عقلك، وهُديتَ فيه لرشدك أن ترجعَ إلى الحق. فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل...»[١].

وكان الأئمة الفقهاء يُعملون عقولهم في ما ليس فيه نص من كتاب أو حديث نبوي حتى سمِّي مذهب الإمام أبي حنيفة بمذهب أهل الرأي، وعُرف عن الإمام الشافعي أنّه غيَّر رأيه عندما جاء إلى القاهرة، لأنّ الفتوى تُقَدَّرُ زمانًا ومكانًا، ولأنّه رأى أشياء جديدة لم يكن يعلمها من قبل. كما نادى الإمام مالك بمبدأ المصالح المرسلة التي تقوم على اعتبار المعنى المعقول الموافق للمصلحة ولروح الشريعة، وبناء الأحكام عليه.

وإذا كان الفقهاء المُحْدَثون يرون أن مصادر التشريع أربعة: القرآن والسنّة والقياس والاجتهاد، فإن القياس والاجتهاد ليسا إلّا إعمالًا للعقل للتوصّل إلى المصلحة المرسلة بالنظر والاستدلال، وبما لا يخالف الأصول في القرآن والسنّة.

وكان بعض الحكماء يعتبر أنّ العقل «فيض من العالم العلويّ من جانب الله تعالى، وأنّه يوضح سبيل الرشد من الغيّ، وأنّ الله إذا أراد أن ينزع من عبد نعمة كان أول ما ينزع عنه العقل، فهو خير المواهب وأفضل موجود».

والزيادة في العقل فضيلة، وقد يرخص الشيء إذا كثر، إلّا العقل، فإنه كلّما كثر غلا، وهو وعاء يتّسع بما جعل فيه ولا يضيق. قال عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه: «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلّا وعاء العلم فإنه يتّسع...» ووعاء العلم هو العقل. ويقول أبو حيّان التوحيدي في المقابسات: «إنّ العقل متاع، كما أنّ الحياة وعاء، والعافية استعمال. فإنّ الإنسان بعقله يصبر على الفقر، وبعقله يجتلب الغنى، وبعافيته يبلغ الغاية ويكتسب السعادة... لأنّ العقل متى حلّ شخصًا أضاءه وأناره، ومتى فارق شخصًا كدَّره وأباره»[٢].

---

(١) مقام العقل عند العرب. قدري حافظ طوفان. دار المعارف. مصر ١٩٦٠..

(٢) المصدر نفسه.

وقال بعض العلماء: ركَّب الله الملائكة من عقل بلا شهوة وركَّب البهائم من شهوة بلا عقل، وركَّب ابن آدم من كليهما. فمن غلب عقله على شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غَلَبَتْ شهوتُه على عقله فهو شرٌّ من البهائم.

نعمة الهداية

ومع العقل تبدأ رحلة العلم، بالتلقّي والتقليد أوّلًا، وبالتجربة والتحليل تاليًا، وبالاكتشاف ثمّ بالإبداع أخيرًا. هذه الرحلة تستمر طوال حياة الإنسان، وفيها دائمًا طريقان: طريق الخير وطريق الشر: ﴿ وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ۝١٠ ﴾ [البلد: ١٠].

وقد علّم الله آدم الأسماء كلّها، فكان هذا العلم هو العلم الأوّل، وأعطاه في الجنّة كلّ ما يمكن أن يتمنّاه: ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ ۝١١٩ ﴾ [طه: ١١٨ – ١١٩]، سوى شجرة واحدة، فكان أمام آدم عليه السلام طريقان: طريق الاستجابة لأوامر الله وهو طريق الخير، وطريق المعصية وهو طريق الشرّ.

«والتفكير بغير عقل ولا هداية شأن الكافرين – كما يقول الإمام محمّد عبده في رسالة التوحيد – ؛ فالمرء لا يكون مؤمنًا إلّا إذا عقل دينه، وعرفه بنفسه حتى اقتنع به. فليس القصد من الإيمان أن يُذَلَّل الإنسان للخير، كما يُذَلَّل الحيوان، بل القصد أن يرتقي بعقله، وترتقي نفسه بالعلم، فيعمل الخير لأنّه يفقه أنّه الخير النافع، ويترك الشرّ لأنّه يفهم سوء عاقبته ودرجة مضرته».

إنّ رحلة الهداية التي بدأت مع تلقّي آدم عليه السلام للعلم من ربّه، تستمرّ إلى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هذه الرحلة الطويلة هي في حقيقة الأمر إمداد معنوي حقيقي من ربّ العالمين أودعه الله في الإنسان فقط دون سائر مخلوقاته من ملائكة وجانّ وحيوان ونبات، وحثّه فيها دائمًا على سلوك طريق التفكّر والتدبّر والتعقّل والتعلّم والتبصّر والسمع... وضرب له الأمثلة وقصّ عليه القصص وأرسل إليه الرسل مبشّرين ومنذرين... حتى تتيسّر لهذا الإنسان سبل الهداية الصحيحة والتمييز بين ﴿ ٱلنَّجۡدَيۡنِ ﴾ ويكون خياره صائبًا صحيحًا، يحقّق فيه الهدف الذي من أجله خلقه الله.

وهكذا فكلّ إنسان يبدأ رحلته بالتلقّي والتقليد، ومنهم من يختمها بالاكتشاف والإبداع، محقّقًا بذلك جزءًا يسيرًا جدًا من عمارة الأرض التي أرادها الله منّا. حتى

إذا انتهت حياته على الأرض، ترك لمن خلفه ما أنجز بفضل الله، ليأتي مَنْ بَعْدَهُ مواصلًا رحلة مَنْ سَبَقَهُ، متمّمًا الجزء الموكل به. ولذلك قال النبيّ عليه الصلاة والسلام: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلّا من ثلاثة: إلّا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[1]. فهذه الأمور الثلاثة تستمرّ بعد موت الإنسان: ذرّية متواصلة، وعلم يستفاد منه تطويرًا واكتشافات، وإنتاج يستفيد منه الناس.

وفي كلّ اكتشاف وإبداع على طريق الخير نعمة وفضل من الله على عباده ليزداد عطاؤهم، ويزداد علمهم، وتزداد إنجازاتهم، وتقوى حضارتهم. ومن يتأمّل جيّدًا في ما توصّلت إليه العلوم الحديثة من اكتشافات بدءًا من الدولاب، مرورًا بالسيّارة والطائرة والحاسوب (الكومبيوتر) و(الإنترنت) والهاتف الثابت والنقّال والمحطّات الفضائيّة، واكتشاف الفضاء وما إلى ذلك.. ومن الثورة الصناعيّة إلى الثورة الإلكترونيّة وصولًا إلى القرية الكونيّة... (والأصحّ تسميتها بالقرية الدوليّة)... كلّ ذلك ليس إلّا تراكم علوم عديدة سبقت يومنا هذا، وأصبحت هذه الإنجازات أساسًا لعلوم جديدة واكتشافات لاحقة ستتحقّق على أيدي الأجيال المتعاقبة، وهكذا دواليك... فتتحقّق بذلك خلافة الإنسان في الأرض وعمارته لها عن حقّ وجدارة.

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

(١) مسلم، الصحيح، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، ح (١٦٣١/١٤)، ١٢٥٥/٣.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٣١ – ٤٢].

روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم «إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته (أي أعلمته) بالحرب، وما تقرّب إليّ عبدي بشيء أحبّ إليّ ممّا افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه»[1].

(١) البخاري، الصحيح، كتاب الرقاق، باب التواضع، ح (١٣٦٧)، ٤٨٢/٨.

فضائل ذكر الموت

فكّرت كثيرًا قبل كتابة هذا العنوان، هل يمكننا القول «نعمة الموت» فوجدتها ثقيلة على اللسان، نافرة على السمع، غريبة في الفؤاد. فالحزن عند الموت مشروع، فكيف له أن يكون نعمة، وقد ذرفت عينا الرسول صلّى الله عليه وسلّم عند موت ابنه إبراهيم، وقال كلمته المشهورة «إنّ العين لتدمع، وإنّ القلب ليحزن وإنّا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»، فالحزن للفراق وليس للموت، فالموت قضاء الله المحتوم: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقد وردت هذه الآية في سورتي آل عمران والعنكبوت أيضًا.

ويقول تعالى في سورة الملك: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ﴾ [الملك: ١ – ٢].

وإن كانت الأشياء تعرف بأضدادها، فالظلام يعرف بالنور والليل بالنهار، والبرد بالحرّ، وكذلك الحياة بالموت، ولولا الموت لما كان للحياة قيمة، ولولا الموت لما كان هنالك حساب بعد الموت. وربّ العالمين حين خلق السماوات والأرض، وخلق الإنسان ليكون خليفة له في أرضه، دلّه على طريق العبادة والعمارة، كما شرع له كيفيّة الحساب على هذه الأعمال التي يقوم بها. فمن الحساب ما يكون في الدنيا، ومنه ما يكون ساعة الموت عند مفارقة الروح؛ حيث يقول ربّ العالمين: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٣].

ومن الحساب ما يكون في القبر أي بعد الموت، ومنه ما يكون يوم البعث، ليكون الجزاء على العمل إمّا الجنّة وإمّا النار: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ

﴿إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝٨﴾ [هود: ٧ – ٨].

وقد أخفى الله عزّ وجلّ عن الإنسان وقت موته رأفة ورحمة به، يقول مطرف بن عبد الله: «لو علمتُ متى أجلي، لخشيت على ذهاب عقلي» فيكثر التفكير به، بعيدًا كان أم قريبًا، فيخرج عن جادّة الصواب. كما إن إخفاء ساعة الموت يجعل الإنسان أكثر خشية لربّه، وأكثر حبًّا لمرضاته، وبعدًا عن معصيته؛ فلا تغرّه التوبة، لأنّه لا يدري إن كان سيحيا بعد المعصية ليتوب عنها أم لا.

يُروى أنّ الإمام مالكًا رحمه الله رأى في منامه رجلًا يدخل عليه، فسأله من يكون؟ فأجاب الرجل بأنّه ملك الموت. فسأله الإمام مالك، كم بقي لي من الحياة؟ فأشار ملك الموت بكفّه كاملًا، وانصرف. استيقظ الإمام مالك من نومه مذعورًا، وأسرع إلى ابن سيرين وكان معروفًا بتفسير الأحلام، وقال: أدركني يا ابن سيرين، وقصّ عليه ما رأى كاملًا وأتبع يقول: لست أدري هل بقي لي خمسة أيام أو خمسة أسابيع أو أشهر أو سنين. ضحك ابن سيرين وقال: إنّه لم يقل لك خمسة أيام أو أسابيع أو غيرها، ولكنّك سألته عن أمر لا يعلمها هو، فأشار إليك بأن هذا الأمر واحد من خمسة لا يعلمها إلّا الله وحده: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤].

ويروى أيضًا أنّ ملك الموت دخل ذات مرّة بهيئة رجل إلى مجلس النبيّ سليمان عليه السلام فوجد رجلًا يجلس إلى جانبه، فنظر ملك الموت إلى الرجل نظرة استغراب شديد فارتعد الرجل، وسأل سليمانَ عليه السلام من هو هذا الزائر؟ فأعلمه أنّه ملك الموت، فزاد استغراب الملك وخوف الرجل من أن يقبض روحه، وطلب الرجل إلى سليمان أن يبعده عن هذا المكان. فأمر عليه السلام أحد مردة الجنّ بحمل الرجل إلى الهند فورًا. وبعد أيام عاد ملك الموت لزيارة سليمان عليه

السلام فسأله: عندما زرتني قبل أيام، نظرتَ إلى الرجل الذي يجلس إلى جانبي نظرة استغراب أخافته كثيرًا، فما الأمر؟ قال ملك الموت: لقد استغربتُ وجوده إلى جانبك، وقد أمرني الله تعالى بقبض روحه بعد ساعة في الهند!

كما يروى في قصّة الرجل الذي جاء إلى إبراهيم بن أدهم وطلب إليه رخصة في معصية الله من غير أن يعذّبه الله. فقال له إبراهيم رحمه الله: لديّ رخصة لك لتعصي الله من غير أن يعذّبك، بشرط أن تضمن لي خمسة أشياء، وذكرها، ومنها قول إبراهيم للرجل: إذا جاءك الموت، وكنت على المعصية فاطلب منه أن يؤخّرك حتى تتوب، فقال الرجل: وكيف يمكنني ذلك يا إبراهيم، والموت يأتي بغتة، وملك الموت لا يؤخّر نفسًا إذا جاء أجلها وأَمَرَهُ الله بقبضها؟ فقال له إبراهيم: أما تتّقي الله والموت يأتيك بغتة لا تدري له زمنًا وميعادًا؟

كما إنّ ذكر الموت يقوّي الوازع الديني عند الإنسان، فيذكر ربّه في السرّ والعلن، ويعبده كأنّه يراه ويراقبه في كلّ أعماله. وقد كان الرسول صلّى الله عليه وسلّم يقول: «أكثروا من ذكر هادم اللذّات»[١]. وقال الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز لعنبسة: «أكثر ذكر الموت، فإن كنت واسع العيش ضَيَّقَهُ عليك، وإن كنت ضيّق العيش وَسَّعَهُ عليك». ذلك أنّ ذكر الموت يجعل الإنسان يتذكّر ما سيؤول إليه بعد هذه الحياة الفانية من موت وحشر وحساب، فيحاسب نفسه قبل أن يحاسبه الله عزّ وجلّ، فلا تعود الدنيا أكبر همّه ولا مَبْلَغَ علمه، مهما زيّن له الشيطان مباهجها ومفاتنها. فيأخذ منها بالقدر الذي يكون له زادًا لآخرته، وكما ورد في الحديث: «اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحّتك قبل سقمك، وغناءك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»[٢].وكان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه يلبس في إصبعه خاتمًا حُفر عليه «كفى بالموت واعظًا يا عمر». أمّا عمر بن عبد العزيز فقد قال لأحد العلماء: «عظني» فقال: لست

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ح (٢٤٦٠)، ٦٣٩/٤ [قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه].

(٢) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، كتاب الرقاق، ح (٧٨٤٦/٣)، ٣٤١/٤.

أوّل خليفة تموت. قال عمر: زدني. قال: ليس من آبائك أحد حتى آدم إلّا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك. فبكى عمر لذلك.[١]

والناس في ذكر الموت أربعة أصناف[٢]:

- منهم من انهمك في الدنيا وغرّته مباهجها وزينتها فانغمس فيها، فلا يحب ذكر الموت، وينفر منه وقد لا يؤمن بالحياة بعده وأولئك هم أصحاب الشمال: ﴿ فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٢ – ٤٨]، أولئك يقول لهم الله عزّ وجلّ في الآيتين التاليتين: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [الواقعة: ٤٩ – ٥٠]، وفي سورة الجمعة: ﴿ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ [الجمعة: ٨].

- ومنهم تائب مبتدئ يُكْثِرُ من ذكر الموت ويخافه حتى يستقيم بعد توبته ويندم عليها ويفيها حقّها، ولذلك فهو يتمنّى تأخير الموت متمثّلًا الآية الكريمة: ﴿ وَأَنفِقُوا مِن مَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ ﴾ [المنافقون: ١٠]، أو: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٩ – ١٠٠].

- ومنهم عارف بالله، لا يفتر لسانه عن ذكر الموت ويرى فيه لقاء الأحبّة، محمّد

---

(١) الترمذي، الجامع الصحيح، كتاب صفة القيامة والرقائق والورع، ح (٢٤٦٠)، ٦٣٩/٤ [قال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلّا من هذا الوجه].

(٢) نهج البلاغة. الشريف أبو الحسن الرضي. (من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه).

عليه الصلاة والسلام وصحبه، هو يحبّ الموت ويتمنّى لقاء ربّه لينتقل من دار الفناء إلى دار البقاء، ليتخلص من العصاة والمذنبين ولسانه يردّد دائمًا: «لا راحة لمؤمن إلّا بلقاء ربّه». كما روي عن حذيفة أنّه لما حضرته الوفاة قال: حبيب جاء على فاقة، لا أفلح من ندم، اللهمّ إن كنت تعلم أنّ الفقر أحبّ إليّ من الغنى، والسقم أحب إليّ من الصحة، والموت أحبّ إليّ من العيش، فسهّل علي الموت حتى ألقاك.

– ومنهم من فوّض أمره إلى الله. فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا ولسان حاله يقول: «اللهمّ أحيني ما دامت الحياة زيادةً لي في كلّ خير، وأمِتْني إذا كان الموت راحةً لي من كلّ شر»، فهو يرى في الدنيا دار التزوّد للآخرة، وهو يسعى لعبادة ربّه في كلّ عمل يقوم به، فإذا أنفق على عياله احتسبه عند الله، وإذا طلب العلم كان امتثالًا لأمر الله: ﴿ **وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا** ﴾ **[طه: ١١٤]**، وإذا طعم كان ذلك حتى يقوم على قوت عياله، وإذا نام كان ذلك حتى يقوى على عبادة ربّه، فهو يرى في كلّ أمر من أمور الدنيا زادًا للآخرة، وعبادة لربّه، وعمارة لأرض الله الواسعة، وفي عمله كلّه خلافة صادقة لله في أرضه.

يقول رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»، فقال قائل: ومن قلّة نحن يومئذ؟ قال: «بل أنتم يومئذ كثير، ولكنّكم غثاء كغثاء السيل، ولينزعنّ الله من صدور عدوّكم المهابة منكم، وليقذفنّ الله في قلوبكم الوهن». فقال قائل: يا رسول الله وما الوهن؟ قال: «حبّ الدنيا وكراهية الموت» [١].

ومن الخطب المنسوبة إلى الإمام عليّ بن أبي طالب كرّم الله وجهه:

«أوصيكُمْ – أيُّها النَّاس – بتقوى الله، وَكَثْرَةِ حَمْدِهِ على آلائِهِ إليكم، وَنَعْمائِهِ عليكم، وَبَلائِهِ لَدَيْكُمْ. فَكَمْ خَصَّكُمْ بِنِعْمَةٍ، وَتَدارَكَكُمْ بِرَحْمَةٍ! أَعْوَرْتُمْ لَهُ فَسَتَرَكُمْ، وتَعَرَّضْتُمْ لأَخْذِهِ فَأَمْهَلَكُمْ، وأُوصِيكُمْ بِذِكْرِ الموتِ وإقْلالِ الغَفْلَةِ

(١) أبي داود، السنن، كتاب الملاحم، باب تداعي الأمم على أهل الإسلام، ح ٤٢٩٧، ص ٦٧٥.

عَنْهُ، وكيف غَفْلَتُكُمْ عَمَّا ليس يُغْفِلُكُمْ، وَطمَعُكُمْ فيمن ليس يُمْهِلُكُمْ؟! فكفى واعظًا بموتى عايَنْتُمُوهُم، حُمِلُوا إلى قبورِهِمْ غَيْرَ راكبينَ، وأُنْزِلُوا فيها غَيْرَ نازلينَ! فَكَأَنَّهُمْ لم يكونوا للدُّنيا عُمّارًا، وكأنَّ الآخِرَةَ لم تَزَلْ لهم دارًا، أَوْحَشوا ما كانوا يُوطِنون، وَأَوْطَنُوا ما كانوا يُوحِشُونَ، واشْتَغَلُوا بما فارقوا وأضاعوا ما إليه انْتَقَلوا، لا عَنْ قَبيحٍ يستطيعون انتقالًا، ولا في حَسَنَةٍ يستطيعون ازديادًا! أَنِسوا بالدُّنْيا فَغَرَّتْهُمْ، وَوَثِقُوا بها فَصَرَعَتْهُمْ. فَسابِقوا - رَحِمَكُمُ اللهُ - إلى منازِلِكُم التي أُمِرْتُم أن تعمروها، والتي رُغِّبْتُمْ فيها، وَدُعِيْتُم إليها؛ واسْتَتِمُّوا نِعَمَ اللهِ عليكم بالصَّبْرِ على طاعته، والمُجانَبَةِ لمعصيته؛ فإنَّ غدًا من اليومِ قريبٌ، ما أَسْرَعَ الساعاتِ في اليومِ، وأَسْرَعَ الأيَّامَ في الشُهورِ، وأَسْرَعَ الشُهورَ في السَّنَةِ، وأَسْرَعَ السِّنينَ في العُمُرِ!»[1].

لذلك كان ذكر الموت فضيلة ونعمة، حثّنا الإسلام عليها، خصوصًا أنّ الله عزّ وجلّ خلق الموت والحياة امتحانًا لنا في أعمالنا وممارساتنا، فإذا قدّمنا في حياتنا عملًا حسنًا كان لنا أجره وحسابه، وإن لم نفعل كنّا عبئًا على هذه الحياة، ورقمًا إضافيًّا بلا جدوى. فالفترة الزمنيّة المحدودة هي حياة الإنسان، عليه فيها أن يسارع إلى فعل الخيرات. يقول الله تعالى: ﴿ **وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾** ﴾ **[البقرة: ١٤٨].**

(١) نهج البلاغة. الشريف أبو الحسن الرضي. (من كلام الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه).

الموت نعمة أم نقمة؟

ويبقى السؤال: هل يجوز الحديث عن «نعمة الموت»؟ والله جل جلاله قد سمّى الموت «مصيبة»، في قوله تعالى: ﴿ فَأَصَـٰبَتْكُم مُّصِيبَةُ ٱلْمَوْتِ ﴾ [المائدة: ١٠٦]، كما أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم سمّاه «هادم اللذّات» في الحديث النبوي الشريف «...وأكثروا من ذكر هادم اللذّات، ومفرّق الجماعات، فإنه ما ذُكِر في كثير - أي من المعاصي - إلّا قَلَّلَه، وما ذكر في قليل - أي من الطاعات - إلّا كَثَّرَه».

يقول د. محمّد سعيد رمضان البوطي إن «الذي يجعل الموت مصيبة، حقيقة إعراض الإنسان عن الموت، ومن ثمَّ عدم تهيّئه للموت الذي هو مقبل إليه، وعدم تهيّئه لما بعد الموت» وجميع الناس تعلم تمام العلم بأنّ الموت هو القدر الذي لا يمكن لأحدٍ أن يفرَّ منه: ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ﴾ [الجمعة: ٨] [١].

وساعة الموت للميّت مصيبة إذا عاش في حياته في غفلة عن لقاء ربّه وانغمس في الشهوات والملذّات. «وما أجمل ما قاله سلمة بن دينار، أبو حازم، رضي الله عنه يوم زاره الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك. وسأله: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟ فقال سلمة: لأنّكم عمَّرتم دنياكم، وخرّبتم آخرتكم، فكرهتم أن تنتقلوا من دار عمار إلى دار خراب. قال له: كيف القدوم على الله؟ فقال له: أمّا المحسن فكالغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكالعبد الآبق - أي الفارّ - يُجَرُّ إلى مولاه»[٢].

ويضرب الدكتور البوطي مثلًا على ذلك إنسانًا استأجر دارًا لعشر سنوات بعقد ينصّ على أن يخرج من هذه الدار في نهاية السنوات العشر، وله دار على مقربة من هذه الدار ولكنّها خَرِبَة. وقد غرّته الدار التي استأجرها لما فيها من بهرج وزينة فنسي الدار الخربة التي لا بدّ أن يصير إليها، ومرّت السنوات العشر، وانتهى

---

(١) موقع: www.55 a.net.

(٢) موقع www.islamonline.net.

عقد الإيجار، وعندئذ تذّكر أنّ داره خربة لا تصلح للسكنى، فكان خروجه من الدار المستأجرة مصيبة وأيّ مصيبة.

أمّا العاقل الذي بدأ إصلاح الدار الخربة منذ أن حلّت قدماه في الدار المستأجرة، فإنّه عمل على أن يرمّمها ويصلحها ويزيّنها على النحو الذي يروق له. حتى إذا انتهت السنوات العشر، خرج إلى الدار التي هو صائر إليها في نشوة وطرب، وفؤاده يرقص فرحًا وبهجة[١].

ويقول أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي الملقب بـ «مسكويه» في كتابه «تهذيب الخلائق وتطهير الأعراق» إنّ «الخوف من الموت ليس يعرض إلّا لمن لا يدري ما الموت على الحقيقة، أو لأنّه يظن أنّ بدنه إذا انحلّ وبطل تركيبه فقد انحلّت ذاته وبطلت نفسه بطلان عدمٍ ودثور، وأنّ العالَم سيبقى موجودًا وليس هو بموجود فيه... أو لأنّه متحيّر لا يدري على أي شيء يقدم بعد الموت، أو لأنّه يأسف على ما يخلّفه من المال والقنيات..

بينما الموت ليس بشيء أكثر من ترك النفس استعمال آلاتها وهي الأعضاء التي يسمى مجموعها بدنًا، كما يترك الصانع استعمال آلاته...».

ثمّ يعرض مسكويه لما يراه بعض الحكماء، «بأنّ الموت موتان: موت إراديّ وموت طبيعيّ، وكذلك الحياة حياتان: حياة إراديّة وحياة طبيعيّة، وعنوا بالموت الإراديّ، إماتة الشهوات وترك التعرّض لها... وبالموت الطبيعيّ، مفارقة النفس البدن، وعنوا بالحياة الإراديّة، ما يسعى له الإنسان لحياته الدنيا، من المآكل والمشارب والشهوات، وبالحياة الطبيعيّة بقاء النفس السرمديّ، بما تستفيده من العلوم الحقيقيّة، وتبرأ به من الجهل. ولذلك أوصى أفلاطون طالبَ الحكمة بأن قال له: «مت بالإرادة تحيَ بالطبيعة» ثمّ يخلص مسكويه إلى القول: «بأنّ من فارقت نَفْسُهُ بَدَنَهُ وهي مشتاقة إليه مشفقة عليه، خائفة من فراقه فهي في غاية الشقاء...

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. لأبي علي أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي «مسكويه». دار مكتبة الحياة، بيروت - لبنان، ط٢.

ومن ظنّ أن للموت ألمًا عظيمًا غير ألم الأمراض... فعلاجه أنْ يعلم أنّ الألم إنّما يكون للحي... وأمّا من زعم أنّه ليس يخاف الموت وإنّما يحزن على ما يخلّف من أهله وولده وماله فينبغي أنْ يعلم أنّ الحزن تعجّل ألم ومكروه على ما لا يجدي الحزن إليه بطائل... فكل كائن فاسد لا محالة...»[١].

وصدق رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذ قال للسيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: «من أحب لقاء الله، أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» فقالت عائشة: أكراهية الموت؟! فكلنا نكره الموت يا رسول الله، قال عليه الصلاة والسلام: «ليس ذاك، ولكن المؤمن إذا بشّره الله برضوانه ومغفرته وجنّته، أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه. وإنّ الكافر إذا بشّر بسخط الله وعذابه، كره لقاء الله، فكره الله لقاءه».

لذلك كان موت الكافر مصيبة له، ولكنّه في الوقت نفسه راحة للناس من كفره وشرّه وظلمه، وخلاص لهم من طغيانه.

أما المؤمن الصادق فهو يرى في الموت فرحة لا تعادلها فرحة، وها هو بلال عندما اشتدت به بُرَحاءُ الموت، وقد سمع من يأسى ويحزن لفراقه، ويقول: واكرباه، قال بلال: «بل واطرباه، غدًا نلقى الأحبّة محمّدًا وصحبه».

ولذلك فقد فهم العلماء بأنّ الموت نعمة كالحياة، رغم أنّه في ظاهره (أي لحظات الموت الأخيرة) انحلال وتفسّخ وصيرورة إلى العدم وهادم للّذّات، وتتجلى نعمة الموت عند النورسي في مظاهر أربعة[٢]:

أولها: الموت إنقاذ للإنسان من أعباء وظائف الحياة الدنيا ومن تكاليف المعيشة المثقلة. ... فهو إذن نعمة عظمى!

---

(١) تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق. لأبي علي أحمد بن محمّد بن يعقوب الرازي «مسكويه». دار مكتبة الحياة، بيروت – لبنان، ط٢.

(٢) فلسفة الموت عند النورسي. أ.د. مصطفى بن حمزة. www.benhamze.net.

ثانيها: إنه خروج من قضبان سجن الدنيا المظلم الضيّق المضطرب، ودخول في رعاية المحبوب الباقي وفي كنف رحمته الواسعة، وهو تنعّم بحياة فسيحة خالدة مستنيرة لا يزعجها خوف، ولا يكدّرها حزن ولا همّ.

ثالثها: إنّ الشيخوخة وأمثالها من الأسباب الداعية لجعل الحياة صعبة ومرهقة، تبيّن مدى كون الموت نعمة تفوق نعمة الحياة. فلو تصوّرتَ أنّ أجدادك مع ما هم عليه من أحوال مؤلمة قابعون أمامك حاليًا مع والديك اللذين بَلغا أَرذل العمر، لفهِمتَ مدى كون الحياة نقمة، والموت نعمة؛ بل يمكن إدراك مدى الرحمة في الموت ومدى الصعوبة في إدامة الحياة أيضًا بالتأمل في تلك الحشرات الجميلة العاشقة للأزاهير اللطيفة، عند اشتداد وطأة البرد القارس في الشتاء عليها.

أمّا مسكويه فيرى أنّه لو جاز أن يبقى الإنسان لبقي من تَقَدَّمَنا، ولو بقي من تقدّمنا من الناس على ما هم عليه من التناسل لما وسعتهم الأرض... هَب أن رجلًا واحدًا ممّن كان منذ أربعمائة سنة موجود الآن... ثمّ ولد له أولاد وللأولاد أولاد، وبقوا كذلك يتناسلون ولا يموت منهم أحد، كم يكون مقدار من يجتمع منهم في وقتنا هذا؟!... إنّ الأرض، حينئذ، لا تسعهم قيامًا فكيف قعودًا أو متصرّفين... فكيف إذا امتدّ الزمان وتضاعف الناس على هذه النسبة.

رابعها: كما أنّ النوم راحة للإنسان ورحمة، ولاسيّما للمبتلين والمرضى والجرحى، كذلك الموت - الذي هو أخو النوم - رحمة ونعمة عظمى للمبتلين ببلايا يائسة قد تدفعهم إلى الانتحار.

كما يرى النورسي: «أنّ الموت بداية رحلة جديدة من الحياة. تأتي بعد أن يُسلم المرءُ الروحَ ليبدأ مرحلةً حياتيّةً أشرف وأسمى من تلك الحياة المرئيّة المألوفة». كموت البذرة التي تبدأ حياة جديدة فتعطي الأزهار والثمار.

وكما ذكر الله تعالى الموت بأنّه مصيبة، في القرآن الكريم في الآية رقم ١٠٦ من سورة المائدة: ﴿ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِ ﴾ كذلك فقد أشار الله تعالى إلى أنّ حقيقة فناء كلّ حيّ، وبقاء الذات الإلهية متفرّدة بالبقاء والجلال، هي نعمة

إلهيّة كبرى، يسميها صاحب الظلال بأنّها «أساس النعم كلّها جميعًا» وذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٦ – ٢٨]. فهذه الآيات ترسم حقيقة البقاء الدائم – بقاء الوجه الجليل الكريم للذات الإلهيّة التي تخلق وتبدع، وتحفظ وتكلأ وتحاسب وتجزي، وهي التي تشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء – أمام حقيقة فناء كلّ مخلوق حي[١].

ولذلك أيضًا يقول تعالى: ﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ [الملك: ١ – ٢]، وقدَّم الموت على الحياة، علمًا «بأن الحياة مقدّمة على الموت بالنسبة للمرحلة الزمنيّة والواقع الذي يعيشه الإنسان، ومع ذلك فإنّ البيان الإلهيّ يلفت نظر الإنسان أنّ عليه أن يهتم بما هو مقبل عليه أكثر من اهتمامه بما مُتَقَلِّبٌ فيه»[٢]، فالموت والحياة من صنع الخالق، وهو مالك الملك الذي ليس قبل مُلْكِهِ مُلْك، وليس بعد مُلْكِهِ مُلْك، وهو على كلّ شيء قدير، وابتلاء الأحياء (أي امتحانهم) لا يكون إلّا إذا كان بعد حياتهم موت وحساب، ليميز الله الخبيث من الطيّب، وليجزي الذين أحسنوا بالحسنى.

وكما يقول أهل الحكمة:

أنت الذي ولدتك أمك باكيًا والناس حولك يضحكون سرورًا

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا في يوم موتك ضاحكًا مسرورًا

خلاصة القول بأنّ الموت نعمة لصاحبه إذا عمل له في حياته، واستعدَّ له استعدادًا صحيحًا كما أمر الله بذلك، «والمصيبة» تكون عند الأهل والأقارب والأصحاب مصيبة الحزن بنتيجة الفراق.

---

(١) فلسفة الموت عند النورسي. أ.د. مصطفى بن حمزة. www.benhamze.net.

(٢) في ظلال القرآن. سيد قطب، ج ٧، ص ٦٨٤.